الأقنعة

• محمد الحاج صالح*

عندما صعد إلى المنصّة ليقرأ اختلط عليه الأمرُ. لم يكن في المركز سوى ثلاثة أشخاص يجلسون بعيدًا في إحدى الزوايا. اعتقد أنّ الندوة القصصية أُلغيتْ، أو أنّ طارئًا ما ألمّ فمَنَعَ الناسَ من الحضور، أو أنّ اليوم عطلة رسمية. لملم أوراقه بغيةَ النزول. علا صوتُ واحدٍ من الثلاثة يطلب إليه بصيغة آمرة أن يجلسَ ويقرأَ ما لديه. تأمّلهم: أحدُهم يضع نظّارةً سوداءَ كبيرةً، لها إطار يَلْبس الأنفَ، وتكادُ تشكّل قناعًا؛ والثاني يضع قبعةً تُخفي العينيْن؛ وثالثُهما استطالت شعراتُ ذقنه ونَفَرَ منها شاربان راعبان.

الأوراق تساقطتْ من يديه على الطاولة وهو يرتمي في مقعده. تساءل: «لكنْ أين الجمهور؟» بَسَطَ الأوراقَ أمامه. طقطقتْ حنجرتُه. زجاجةُ ماء الدريكيش أمامه. شرب قليلاً وجاهد ليبدأ القراءة، فلم يُفلح. صوتُه المرتجف يأبى الظهور. سمع الأمرَ يُتلى بمباشرة القراءة.

الورقة الأولى أمام عينيه. بَسَطها جيدًا وامتثل للأمر. نظر إلى العنوان، وتحرّكتْ حنجرتُه للنطق. لكنّ عنوان الورقة مختلِف. هذه ليست القصة التي يريد قراءتَها، وهو لا يَذْكر أنّه كتب شيئًا مماثلاً لهذا العنوان. قلّب أوراقَه. لم يجد العنوان. من الذي أبدل الأوراق؟ حاول التعرُّفَ على خطّه: إنّه الخطّ الرديء ذاته. الثلاثة في القاعة يجلسون بعيدًا ويتململون. صرخ المحذِّر فيهم آمرًا أن يبدأ. تأمّلهم: كان كلّ واحد يَحْمل دفترًا وقلمًا بانتظار التقاط كلماته وأنفاسه. أدرك أنّهم لن يصدِّقوه. نظر إلى أوراقه. زاغت الكلماتُ ثم انمحت تمامًا من دفتره. حكّ يدَه كي يتأكّد من أنّ الأمر ليس حلمًا. انتقل الحكاكُ إلى جسده، وأحسّ بتورُّم في القدميْن.

تصاعد صوتٌ من بعيد: «اقرأْ وإلاّ سنكتب أقوالَكَ، سواء تحدّثتَ أم لا. فنحن نعرفُك أكثرَ ممّا تعرف نفسك.»

وأخيرًا انطلق لسانُه، وقال: «لنبدأْ من أول السطر.» ابتدأتْ كلماتٌ تولد أمام عينيه من الفراغ، من الهواء، من الستائر، من الورق الأبيض. أخذت القاعةُ تمتلئ بالحضور، وهو يقرأ نصوصًا مكتوبة عن ظهر قلب، لم يتجرّأ أن يتلفّظ بها ذاتَ يوم.

لم يترك شيئًا لم يتحدّث عنه. تحدّث عن الرشاوى والفساد والسرقات. تحدّث عن الذين أَثْرَوا بالسمسرة فأخذوا أموال الفقراء. سمّى الأشياء بأسمائها. وسمّى سارقي الأحلام والوطن.

بدايةً ابتسم الثلاثة بشماتة؛ فصيْدُهم اليومَ ثمين. كانوا يقلّبون الصفحات، لكنْ عندما امتدّ مبضعُه عميقًا في جروحهم، ليطولَهم ويطولَ عائلاتِهم وأولادَهم، توقّفوا عن الكتابة. نَزَعَ صاحبُ النظّارة قناعَه، والآخرُ قبعتَه، والثالثُ اقتلع ذقنَه. تأمّلهم وهم يمزّقون دفاترهم ويَخرجون من القاعة واحدًا تلو الآخر.

وبينما السكّينة تَهْبط عليه دَخَلَ رجالٌ آخرون يرتدون ثيابًا مبرقعة. صَمَتَ. لكنّ صوتًا يشبه صوته استمرّ عاليًا، أعلى من الأول. ذهِلَ وهو يستمع إلى صوته يتحدّث عن الرفاهية، ومستوى المعيشة، ومدينة أفلاطون التي تحقّقتْ فيها الأحلام. كان صوته قويًا واثقًا يملأ جنباتِ القاعة ويتردّد صداه في الخارج.

قفز رجلٌ مموَّهٌ إليه، فاقتلعه عن الطاولة. كان برفقته رجالٌ يرتدون ملابس بيضاء. أدرك أنّه ذاهب إلى مكان يعرفه جيّدًا. قبل خروجه من القاعة حانت منه التفاتةٌ إلى المنصة، فرأى رجلاً يجلس مكانه يُشْبهه تمامًا ويرتدي الثيابَ التي يرتديها. لم يتمكّن من إطالة النظر، فلقد امتدّت الأيدي تحمله إلى خارج القاعة.

الرجال المموّهون مضوا به إلى محطة القطار.

...

قطار الليل يَخْترق الظلمة. أُدخِل أحمد إلى الكابينة المخصّصة لنقله. دهش لرؤية فتاةٍ تجلس في الداخل. العيون تلتقي. وجهها هادئٌ. تنظر الفتاةُ باستغراب إلى الرجل الذي يَرْمقها بنظراته، ثم يهرب من عينيها، ليعود فيختلس النظرَ من جديد.

---

* - كاتب سوريّ.

انتظر ابتسامةً أو إشارةً أو كلمةً تبتدئ الحديثَ به، أو تمهّد له ليستلم الحديثَ. تبتسم كما لطفلٍ أمامها، وربما تحمل ابتسامتُها نوعًا من التعالي، أو لعلّها الثقة بالنفس؛ لكنَّها بالتأكيد لا تَحْمل ازدراءً تجاهه. غير أنّ لعبة العيون لم تطلْ، إذ رآها تغمض عينيها ثم تستغرق في النوم. اللامبالاة التي عاملتْه بها كادت تَصْدمه، لكنَّه أحسّ ببعض السعادة؛ فلقد صار بإمكانه تأمُّلُ وجهها بحرية وبدون استئذان.

يَدْخل القطارُ نفقًا فترتسم ظلالٌ باهتةٌ على وجهها. عيناه تتأقلمان مع الظلمة المباغتة وتنشدّان إليها. وعندما يختفي النفقُ تفاجئه الابتسامةُ المرتسمةُ على شفتيها واختلاجُهما، وهي تستجيب لحلم يداعبها.

يحاول جاهدًا رَسْمَ الوجه في ذاكرته: الشعر الأشقر، والجفنان المسبلان على العينين نصف المغمضتين.

الشمس تدخل من النافذة الشرقية. يسارع إلى إغلاق الستارة وهو يقول لنفسه: «لن أسمح لها بالدخول وتعكير أحلامها. يجب أن تبقى نائمة!»

يُبعد عن ذهنه كلَّ المشاكل والهموم العالقة. ينسى ما جرى له أثناء الندوة القصصية، ويكاد ينسى الحراسَ الذين يحرسون الكابينة. «آه ما أروع نعمة النسيان!»

المصادفات وحدها قانون. لكنْ، أتراها مصادفة حقًا؟ من هذه الفتاة؟ ولماذا وضعوني معها في مقصورة واحدة؟ لماذا لم يقيِّدوني؟ لعلّهم لم يريدوا لفتَ أنظار الناس بعد دخول القطار. لعلّهم أخفَوا مسدَّساتهم في مؤخّراتهم. لعلّ الرجال الموّهين لم يصعدوا، بل صعد رجال يرتدون ملابس عادية وملامحهم حيادية.

تنتقل عينا أحمد إلى ساعته، وصوتُ ميكرفون يتصاعد معلنًا: «بقيت ساعةٌ على الوصول إلى المحطة الأخيرة.» يتمتم أحمد: «ساعة واحدة وتنتهي الرحلة!» الدرب الطويل يَقْصر، والرغباتُ المجنونة تَجْمح.

الفتاة النائمة تتنفّس بهدوء. يتمنّى أن يقترب من الوجه يلامسه، يداعب الحاجبين والوجنتين ويَلْثم الشفتين. القطار يَزْحف بطيئًا، وأصواتُ الخارج لا تصل إلى الداخل، والرحلة حلم يتمنّى أن يستمرّ إلى المجهول مع الفتاة التي تَغْرق في الحلم.

مفتِّش البطاقات يَعْبر الكابينة. يزعج أحلامَ الفتاة. يبتسم الصباحُ على شفتيْها. تمتدّ أناملُها العاجيةُ ليثقبَ المفتِّش بطاقتَها. أما أحمد فلا يطلب بطاقته! باستغرب يسائل نفسه: «لماذا لم يفعلوا؟» لكنَّه يتذكّر أنّ الحرس في الخارج، وأنّهم بالتأكيد تكفّلوا له بتذكرة القطار.

يتثاءب الملاك. الأسنان تَبْرق، والعينان تَبْرقان بدمعةٍ وكلماتٍ خجولةٍ مع ابتسامة: «صباح الخير.»

تقفز الشياطينُ، ترقص في داخله وتهزج. يَنْبت له جناحان لكنَّه لا يرغب بالطيران.

ـ «صباح الخير...» ثمّ يتوقّف سيلُ الكلمات.

القطار يصل المحطة. يتوقّف. تستعدّ للخروج. أقف أحمل لها المحفظة. تمسك بيدي تسألني وهي تبتسم في وجهي: «هل نمت جيّدًا يا أحمد؟»

يا اللّه إنَّها تعرف اسمي. إنَّها هي! أتراها تذكَّرتْ كلّ شيء؟

تأبطتْ ذراعي، وأنا فقدتُ النطقَ والتعبيرَ. لكنَّني سعيد. أرقص في داخلي. أهزج. أبكي. يتوقّف القطار تمامًا. نخرج معًا، يتأبّط أحدُنا ذراع الآخر.

عندما غادرنا القطار كان على الرصيف رجالُ شرطةٍ وممرِّضون. توقّفنا إلى جانبهم. قالت نجوى (هكذا أَسْمَتْها ذاكرتي): «أحمد كان عاقلاً جدًا. أعتقد أنّ إقامته لن تطول معكم.»

كانت الوجوه متضخّمة. الأنوف كبيرة. العيون صغيرة. الرؤوس كالقنبيط. لم يكن هناك وجهٌ واحدٌ له شكل بشريّ، باستثناء نجوى.

أحمد يصاب بالدهشة والحيرة: «كيف تسلِّمني نجوى لهؤلاء المشوَّهين؟»

قالت وهي تشدّ على يديْه: «سأعود إليكَ قريبًا يا أحمد. عليك أن تكون عاقلاً كي نرحل في قطار الليل من جديد.»

وضعوا على رأسي رأسَ القرنبيط. بدأ الهلامُ يغشى عيني. ثم فقدتُ الذاكرة.

طرطوس